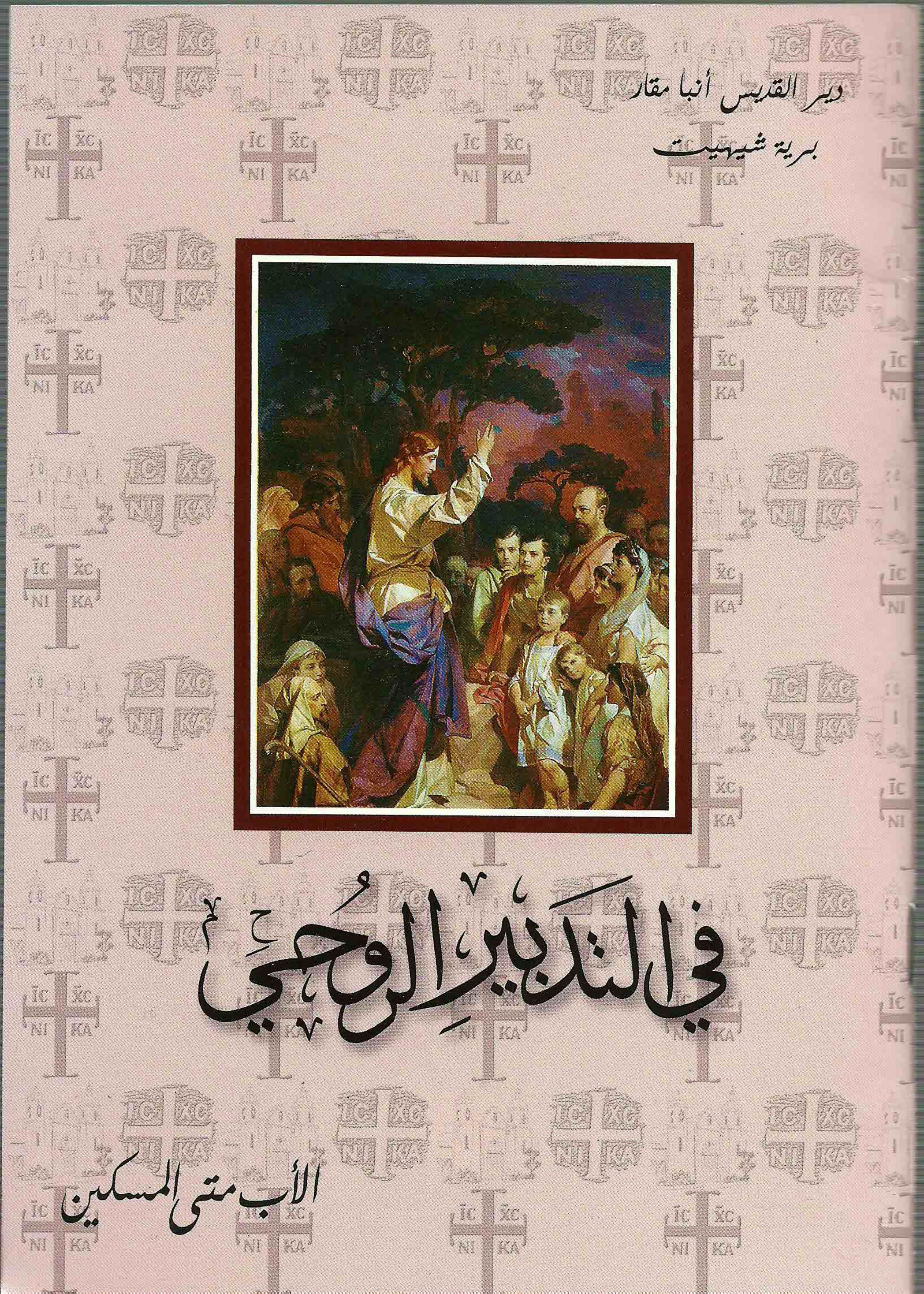

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت
في التدبير الروحي
الأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

مقالات تصلح للخدام والشباب
المقالة الرابعة

في التدبير الروحي

الأب متى المسكين

الفهرس

مقدمة

معنى التدبير الروحي

التدبير الروحي، بلغة الآباء، هو كيفية بناء الإنسان لحياته الروحية. وهذا يشمل نوع المبادىء والمشورات والتوجيهات الخاصة التي يتبعها الإنسان في سلوكه الروحي.

والإنسان الذي تدبيره الروحي مُتقَن، هو الذي ينمو بلا عائق، حتى وفي الظروف المعاكسة مهما كانت. أما الإنسان الذي يسير بدون تدبير، فهو يتعوق كثيراً في الطريق ويصعب عليه المسير في الضيقات وربما يتخلف.

الأصول التي يعتمد عليها التدبير الروحي

يعتمد وينبع باستمرار من ثلاثة أصول:

الأول: الإنجيل.

الثاني: النعمة.

الثالث: المرشد الروحي.

والإنجيل يأتي أولاً، لأن التمسك به يؤهل لعمل النعمة؛ والنعمة هي التي تجعل كلام المرشد وتوجيهه مقبولاً وسهلاً ومنيراً.

فأما **الإنجيل**، فهو يقدم لك المبادىء الروحية كوصايا محددة للسلوك.

وأما **النعمة**، فهي تشجعك لتنفيذ الوصية وتسهِّل لك تنفيذها، وهي لا تأتيك إلا إذا بدأت العمل.

وأما **المرشد**، فيقودك في الطريق التي تشجعتَ واخترتها لنفسك بتوجيه الله.

الآباء القديسون الذين نجحوا في تدبيرهم الروحي تركوا لنا ميراثاً غنياً جداً في التدبير الروحي، سواء بنموذج سلوكهم وتصرفاتهم إزاء كل الظروف والحوادث، وهذه نسميها سير القديسين، أو بالمشورات والتوصيات والتحذيرات التي كتبوها بيدهم وهذه نسميها كتابات الآباء.

لذلك، فالمرشد المحب لحياة القديسين وكتاباتهم والتمسك بسيرهم وتصرفاتهم يعتبر بمثابة الوصيِّ الصالح الذي أقامه الله على المتتلمذين للحق، لتوريثهم خبرات القديسين وثمار جهادهم.

التدبير الداخلي والتدبير الخارجي

التدبير الروحي يشمل:

التدبير الداخلي: أي السلوك الخفي داخل القلب وفي المخدع.

التدبير الخارجي: أي السلوك الظاهري مع الناس، سواء كانوا أهل بيته أو كانوا جماعة الإخوة أو العالم الخارجي غير المؤمن بالمسيح. والتدبير الخارجي سنسميه العلاقات الروحية وسنوفيه حقه في نبذة أخرى.[1]

علاقة التدبير الداخلي بالتدبير الخارجي

والمعروف أن التدبير الداخلي هو الذي يغذي التدبير الخارجي ويتحكم فيه. فإن كان تدبيرنا الداخلي متقناً نشيطاً، صار تدبيرنا الخارجي ناجحاً مفيداً وبدون عثرة. أما إذا كان تدبيرنا الخارجي، أي سلوكنا مع الناس، مُعثِراً وبدون لياقة، وموضع دينونة ونقد، كان هذا برهاناً على عدم إتقان تدبيرنا الداخلي وحاجته الشديدة إلى المراجعة والضبط والتجديد.

---

(1) ارجع إلى مقال: "المسيحي في المجتمع"، ومقال "المسيحي في الأسرة"، من هذه السلسلة: "مقالات تصلح للخدام والشباب."

وتظل العلاقة بين التدبير الداخلي والتدبير الخارجي شديدة الارتباط مدى الحياة كلها. فالتدبير الخارجي دائماً يكشف عوار التدبير الداخلي، ويوجه نظرنا إلى ما يجب تعديله في طبائعنا وأخلاقنا بالصلاة وبقية تدبير المخدع. **فكل عثرة أو نقيصة تظهر في سلوكنا مع الناس تشير إلى انحراف أصيل في مبادئنا الروحية.** فإذا كنا نتجاهل عثراتنا يكون ذلك معناه أننا سنتجاهل نمونا الروحي بأجمعه، **لأن العثرة الصغيرة - مهما كانت - لا يمكن أن تبقى صغيرة بل لابد أن تأخذ من إهمالنا لها فرصة علينا لتصير عثرة أكبر وأخطر.**

وعمل الإنجيل في ذلك هو كشف وتسليط النور باستمرار على كل عثرة أو نقيصة تبدو في سلوكنا، وذلك عند قراءته اليومية بضمير مستيقظ ونفس مُحبَّة للإصلاح والنمو.

أما عمل النعمة فيكون بالتوبيخ واللوم وإشعال الضمير بالندم عند اكتشاف العثرة، ثم الحث على طريقة مناسبة للتوبة.

أما **عمل المرشد** فهو تصحيح الوضع وتعديل الخطوات وتحديد التوبة، على أساس التراث الأبوي وحسب إلهام الله بما يناسب كل نفس.

والإنسان مهما كانت درجته الروحية، لا يمكن أن يُعصَم من العثرات، **ولكن كل عثرة إذا كشفها الإنسان وقدَّم عنها ما يناسبها من الندم والتوبة، ثم تقبَّل من المرشد ما يليق من التوجيه لإصلاح أسبابها الداخلية، فإن العثرات ستكون فرصة لإحراز نمو وتقدم وإتقان في التدبير الداخلي والخارجي معاً.**

أما الذي يستحي من عثراته أو يهملها أو يُرجعها إلى الآخرين، فعتيد أن يشتكي من توقُّف نموه الروحي، مهما كانت أعمالَه.

التدبير الداخلي

+ الصلاة.

+ تقديس الفكر.

+ إنكار الذات.

+ الأمانة والتدقيق في تنفيذ وصايا الإنجيل.

سنقتصر في التدبير الداخلي على تقديم أربعة توجيهات.

الأول: في كيف أن الصلاة هي عمل التدبير الروحي الأول وقانونه، وما هي العطية الثمينة التي سننالها من أمانتنا في الصلاة وحبنا لها.

الثاني: في تقديس الفكر، حتى لا تتبدد جهود الإنسان ويتخلف تدبيره. لأن الأفكار النجسة وأفكار الدينونة تهدم أولاً بأول ما تبنيه الصلاة.

الثالث: في إنكار الذات، لأنه إذا لم يرصد الإنسان حيل الذات، فستكون كفيلة بأن تبتلع التدبير الروحي كله لحسابها ويصبح تعب الإنسان باطلاً.

الرابع: في الأمانة والتدقيق في تنفيذ وصايا الإنجيل، باعتبار أنها أمل الإنسان الوحيد في تجديد حياته وثبوته في المسيح، مع لفتة خاصة نحو الإيمان باعتباره القوة السرية التي يعتمد عليها الإنسان في تنفيذ الوصايا.



الفصل الأول

الصلاة

«وأما أنت فمتى صلَّيتَ فادخل إلى مخدعك، وأغلق بابك، وصلِّ إلى أبيك الذي في الخفاء» (مت ٦:٦).

معنى غلق الباب

حينما يطلب الله أن نغلق الباب قبل أن نصلي، فهو ينبهنا لكي نقطع بين العمل خارج المخدع وبين العمل داخل المخدع. وذلك يتم من جهة **القلب**، ثم من جهة **الحواس**، ثم من جهة **الناس**.

+ **أما من جهة القلب**: فينبغي أن يطرح الإنسان كافة مسئولياته وهمومه وأتعابه وقلقه ومخاوفه بمجرد مثوله أمام الله، حتى يتسنى له أن يدخل في السلام الكامل الذي يفوق العقل.

وهنا غلق الباب يعني تحصُّن القلب في الفاصل الروحي بين العالم الجسداني وبين العالم الروحي، الذي هو بمثابة الموت، **أي يعتبر الإنسان نفسه حينما يغلق الباب خلفه أنه بمثابة من مات عن العالم الجسداني وهو الآن أمام الله يعطي حساب وكالته ويطلب مراحمه.**

+ **أما من جهة الحواس**: فالإنسان في العادة يكون محمَّلاً بأفكار منطبعة في العقل، ومناظر عالقة في التصور، وكلمات محفوظة في الذهن، وخبرات حسية أخرى متغلغلة في باقي الحواس، هذه تحوي ضمن ما تحوي عيِّنات خسيسة يكون قد مال إليها الضمير فاحتجزتها الحواس وتمسَّك بها العقل، يرددها أحياناً بهواه، وأحياناً خلسة من وراء الإرادة، وأحياناً بالقوة في غير ما

مناسبة رغماً عن الإرادة والضمير، فتُشكّل حينئذ صراعاً مريراً داخل الإنسان. هذه من المفيد جداً حينما ندخل المخدع أن نسبق **ونطرحها من الضمير ونجحدها بشجاعة**، ونقدِّم عنها اعتذاراً أمام الله مع ندم وتوبة بتصميم وعزم، جاعلينها كلها في موضع البغضة والكراهية.

غلق باب المخدع يعني وضع المسيح المصلوب بين الروح وبين الحواس الجسدية حتى تموت الأعضاء التي على الأرض: «أنتم الذين أمام عيونكم قد رُسم يسوع المسيح بينكم مصلوباً» (غل ٣:١)، «فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض» (كو ٣:٥).

أما إذا لم نجحد هذه الخبرات والمناظر والمسموعات، ونعترف بها مُقرِّين بذنبها وببغضها في كل مرة ندخل فيها مخدعنا، فهي كفيلة لا أن تحرمنا من قوة الصلاة والمثول أمام الله فقط بل وأن تجعل المخدع مكاناً نجساً.

+ **أما من جهة الناس:** فالإنسان يوجد دائماً أبداً مربوطاً بالآخرين. فأنت قد تجد نفسك:

إما **مشغولاً** بحب الآخرين حباً عاطفياً يجذبك إليهم جسدياً وقلبياً فيحرمك من استقلالك الذاتي وحريتك الداخلية، التي هي أساس العبادة وحب الله والنمو الروحي.

أو قد تجد نفسك **مهموماً** بأحوالهم وظروفهم وأمراضهم ومستقبلهم إلى الدرجة التي تفقد فيها كل اهتمام بروحك وخلاصك.

أو قد تجد نفسك **منفعلاً** بعداوتهم وبغضتهم وكرههم وانتقادهم والحقد عليهم، إلى الدرجة التي تملأ المرارة كل نفسك ولا تتفرغ من التصورات الشريرة وتدبير الانتقام.

أو قد تجد نفسك **منجذباً** نحو الآخرين فوق إرادتك، تخرج كل يوم

تجوب الطرقات والبيوت بلا ملل لإظهار قدراتك وروحياتك وفنونك، حتى يشترك معك المعجبون بك في عبادة ذاتك.

وهنا غلق باب المخدع يفيد قطع كل صلة ميتة تربطك بأي إنسان يتسبب لك منها هلاك نفسك: «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه» (مت ١٦: ٢٦).

وليس معنى هذا أن نقطع صلاتنا بمن هم في حاجة إلينا أو بمن نحن في حاجة إليهم ونعتزل الناس، بل أن نُصفّي علائقنا مع الجميع حتى تصير وفق التدبير الروحي. فنكف عن الاستغراق بالعواطف في هموم الناس، الأمر الذي لا يفيد الإنسان شيئاً، ونضع حدًّا لأحقادنا، ونموت عن شهوة تمجيد الناس لنا.

الصلاة عمل أساسي في التدبير الروحي

كما يلزم الإنسان أن يعمل ويتصل بالأرض باستمرار لكي يعيش، فيكد ويتعب بالفكر والجسد حتى يحصل على لقمة العيش وشربة الماء، هكذا يلزم للروح أن تتصل بالله باستمرار لكي تتأصل فيها نسمة الخلود وتليق للحياة الأبدية.

والاتصال بالله هو ما نسميه "الصلاة،" وهو في الحقيقة عمل.

لذلك، فالصلاة ينبغي أن نعرف أنها عمل روحي تقتات منه الروح وتحصل على نموها من الله مباشرة.

والذي يلزمنا أن نتأكد منه تماماً **أن كل اتصالٍ بالله هو ما يسمى بالحق "صلاة" ولكن ليست كل صلاة اتصالاً بالله!** فكثيرون يصلّون بدون رغبة ولا استعداد للاتصال بالله، فصلاة مثل هذه ليست صلاة، لأن الصلاة هي عمل مشترك بين الإنسان والله.

فإذا كان المخدع هو المكان الذي أفرزه المسيح لعمل الصلاة الداخلية، لذلك فإننا **بقدر ما ندوم في المخدع ينبغي بالضرورة أن ندوم في عمل الصلاة، أي نكون على اتصال روحي بالله.**

وقد يفسح الله لإنسان أن يدوم كثيراً في مخدعه، كالراهب الذي يُعتبر بالحق أنه دخل مخدعه وأغلق خلفه إلى الأبد، إذ لم يَعُد له أخذ وعطاء مع العالم وهمومه الباطلة.

وقد يُفسح الله لآخر أن يبقى في مخدعه كل يوم بضع ساعات، ولكن لكثيرين لم يُعطَ أكثر من ساعة أو ربما أقل.

ولكن كل هذا التفاوت الزمني في فُرص البقاء والصلاة في المخدع يعوِّضه الروح القدس حينما يُخلص الإنسان في تدبيره الروحي. فبقدر اشتياق الإنسان للصلاة يعطيه الروح في أوقات قليلة فرصاً عظيمة للتنعم والامتلاء من الله.

لذلك، يلزم للإنسان أن لا يحزن لقلة الساعات التي تبقَّت للمخدع، ولكن عليه أن يتحقق من استعداده الداخلي واشتياقه للاتصال بالله. حينئذ تصبح الدقائق القليلة بمثابة أيام. وعلى العموم تعتبر الشكوى من قلة الوقت المتبقي للصلاة تبريراً كاذباً للنفس في إهمالها وتوانيها وتهربها من الوقوف أمام الله.

دخول الروح القدس في كلمات الصلاة

حينما يغلق الإنسان الباب بمفهوماته الثلاثة السابقة، أي من جهة القلب والحواس والناس، ثم يسجد ثلاث سجدات باسم الثالوث الأقدس كبداية حسنة لإظهار نية الاشتياق لله ثم يرفع يديه وعينيه وقلبه نحو السماء، في الحال يحلُّ عليه روح الصلاة وحينئذ تتحول كل حركة إلى اتصال بالله فيعيش الإنسان ساعاته القليلة أو الكثيرة في حضرة الله.

بهذه الروح حينما يبتدىء الإنسان في الصلاة، وعلى الخصوص بالمزامير، يشعر أن الكلمات في فمه غير عادية، إذ تحمل له معاني جديدة وتوجيهات ووعوداً. فبالرغم من أن الكلمة من نُطقه هو، كما هي مُسجَّلة في المزمور، إلا أنها تصبح كأنها منطوقة من الله له لتعطيه جواباً شافياً أو عزاء أو وعداً بالمعونة والخلاص. وهكذا بالرغم من أن الصلاة تظهر كأنها من طرف الإنسان فقط، إذ بالروح القدس يدخل الصلاة سراً ويبتدىء يرد على الإنسان بالكلمات المنطوقة نفسها، وهذا يُعتبر مفتاح التدبير الداخلي، **لأن بدون تدخُّل الروح القدس في الصلاة تصبح الكلمات ضعيفة جداً وبدون رسالة موجهة:** «الروح أيضاً يعين ضعفاتنا، لأننا لسنا نعلم ما نصلي لأجله كما ينبغي، ولكن الروح نفسه يشفع فينا» (رو ٨:٢٦). على أن الروحِ القدس لن يكف عن توجيه الإنسان المفتوح القلب والذهن، مستخدماً كلمات الصلاة والقراءة بحذْق عجيب. لذلك، **فكل صلاة أو قراءة تُقدَّم بدون ذهن مفتوح ونيةَ الاستماع لصوت الروح القدس تُعتبَر خارجة عن التدبير الروحاني المُتقَن،** وصاحبها لا يجني من ورائها تقدماً يُذكر، «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخلٍ ملكوت السموات» (مت ٧:٢١)، «أصلي بالروح وأصلي بالذهن أيضاً» (١كو ١٤:١٥).



الصلاة قانون روحي

معنى القانون الروحي وإيجابيته المطلقة

القوانين الروحية ليست كالقوانين المادية التي تسير بمقتضاها الطبيعة، أو التي تسنُّها الدولة لضمان الأمن والعدالة؛ لأن القوانين المادية على وجه العموم مُقفلة، أي لا تسمو إلى شيء بعدها، فهي شحيحة، تعاقب ولا تكافئ، وهي في حقيقتها تحدُّ من حرية الإنسان.

أما القانون في الروحيات فهو بمثابة درجات السلم، فإذا تثبَّت الإنسان في واحدة، أهَّلته إلى ما بعدها، والصعود فيها إلى مالانهاية. لأن الروحيات غير محدودة، لذلك فالقوانين الروحية غير مقفلة.

وبناء على هذا، لا يجوز أن نخلط في إحساسنا بين القوانين المادية وتلك الروحية، فنجزع من القوانين الروحية بسبب خبرتنا المادية المؤلمة من كلمة "القانون."

القانون في الروحيات سخيٌّ جداً، فالذي يتبعه يكتسب منه إلى مالانهاية، وإذا أتقنه يتأهل إلى قانون أعلى وأكثر سخاءٍ وحرية، والذي يرفضه أو يخالفه لا يقع تحت انتقامه كالذي يتجاهل قانون الجاذبية أو خالف قانون الدولة؛ لأن القانون الروحي إيجابي محض وليس فيه سالبية من أي نوع كالله نفسه، أي ليس له صلة إلا بمن يقبله ويتبعه.

فالذي يتبعه يزداد ويتحرر، أما الذي يرفضه فيحرم نفسه من النمو ومن الحرية. وإن أردتَ توضيحاً سهلاً لعمل القانون الروحي، تجده في قول المسيح: «سيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو ١٢:٣٥).

فالقانون الروحي بمثابة نور نلتجىء إليه لنسير على هداه خطوة بعد خطوة. وطالما نحن متمسكون به فنحن نتقدم، فإذا أهملنا النور وتجاهلناه لا يذهب عنا النور ولا ينتقم منا، ولكن يدركنا الظلام فلا نستطيع المسير.

وعلى سبيل المثال نجد في قول الرب: «هذه هي وصيتي أن **تحبوا بعضكم بعضاً**» (يو ١٥: ١٢) صورة حية للقانون الروحي، فإذا تبعنا هذا القانون فنحن نسير في النور، أي نتقدم، كقول يوحنا الرسول، بمعنى أننا نزداد في الحب. ولكن إلى أين نسير، أو إلى أي مدى نزداد في الحب؟ الجواب على هذا مهم جداً، فنحن سنسير بالضرورة نحو مصدر النور نفسه، أي المسيح الذي هو النور، بمعنى أننا نزداد في الحب حتى نصل إلى ملء قامة المسيح الذي هو المحبة الكاملة. وهذا تعبير جميل عن النمو إلى مالانهاية.

وما عرفناه عن قانون المحبة هو بعينه ما ينبغي أن نعرفه عن قانون الصلاة. فقول الرب: «ينبغي أن يُصلَّى كل حين ولا يُمَلَّ» (لو ١٨: ١)، «اسهروا وصلّوا» (مت ٢٦: ٤١)، «وما أقوله لكم أقوله للجميع: اسهروا» (مر ١٣: ٣٧)، «اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة» (مر ١٤: ٣٨)؛ هذا يحدد لنا أهمية الصلاة في وضعها الروحي ويُلبسها ثوب القانون. والإنجيل يشهد للمسيح أنه طبَّقه، فقد «قضى الليل كله في الصلاة» (لو ٦: ١٢)، و«صعد إلى الجبل منفرداً ليصلي» (مت ١٤: ٢٣)، «وكان يعتزل في البراري ويصلي» (لو ٥: ١٦).

ومن هذا التنبيه المتكرر عن أهمية الصلاة يسهل علينا أن ندرك أن الصلاة تخفي وراءها أموراً هامة وخطيرة للإنسان، وأنها ليست وصية بسيطة يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها بشيء آخر أو بوصية أخرى، فمن إلحاح السيد المسيح على الصلاة الذي يشبه ناقوس الخطر تماماً، ومن التجائه هو نفسه إلى الصلاة بصورة دائمة ومستمرة حتى أنه كان يقضي الليل كله في الصلاة، نستطيع أن نقرر أن **الصلاة قانون حتمي للحياة الروحية تحوطه أسرار**

كثيرة، وأقل ما يلزم أن نعرفه عن أهمية الصلاة وخطورها أن مجرد إهمالها يُدخلنا في التجارب (مر ١٤ :٣٨).

أساس قانون الصلاة "في السبعة الأوقات" الذي وضعته الكنيسة يستمد روحه من وصية السيد القائلة: «ينبغي أن يُصلّى كل حين ولا يُمَلَّ» (لو ١٨ :١). فلكي تضمن الكنيسة ملء الزمن اليومي (أي كل حين) بالصلاة، قسمت ساعات النهار الاثني عشرة إلى ستة أجزاء، وجعلت لكل جزء نهاري صلاة تناسبه من المزامير، وفصلاً من الإنجيل وطلبة. أما الليل فجعلت له صلاة واحدة في منتصفه جزأها إلى ثلاثة أجزاء حتى يمكن تقسيمها على الليل كله. وبذلك أمكن تنفيذ وصية السيد المسيح للصلاة كل حين بممارسة السبع الصلوات كلٌ منها في ميعاده.

فالسبع الصلوات التي تجمعها "الأجبية" تمثل قانوناً للصلاة أساسه وصية المسيح، لملء الزمن وضبط الحياة كلها وتقديسها بالصلاة، وتعبيراً عن السهر القلبي الدائم لانتظار النهاية السعيدة بمجيء العريس الذي شدد عليه الرب: «وما أقوله لكم أقوله للجميع اسهروا» (مر ١٣ :٣٧). لذلك فالسبع الصلوات تنتهي كل يوم بصلاة نصف الليل تعبيراً عن السهر حتى مجيء العريس.

والآن، إذ عرفنا أن السهر القلبي وتقديس كل الوقت بالصلاة هو أساس قانون الصلاة، نستطيع أن نُكيِّف الصلوات المقررة بالنسبة لظروف أعمالنا اليومية خصوصاً للذين لا يملكون في كثير من الأيام أوقاتاً كافية لأداء السبع الصلوات كاملة.

فالسهر القلبي أثناء أدائنا لأشغالنا اليومية مهما كان نوعها، سواء في البيت أو المدرسة أو المصنع أو محل التجارة أو مكتب العمل، يُعوِّضنا عن الوقوف داخل المخدع، إذ أنه يُدخِلُنا مباشرة في أداء قانون الصلاة لاستيفاء مطالب

الرب، لأن السهر القلبي الذي هو تطلُّع إلى الرب يسوع من حين لآخر على مدى النهار كله ومناجاته بكلمات المحبة لا يقل عن الوقوف في الصلاة.

أما تقديس الوقت فلا يحتاج منا أكثر من بضع دقائق سبع مرات في اليوم، وكل مرة نتلو فيها مزموراً واحداً مع قطع الساعة الحاضرة وإنجيلها، وذلك إما بالاختلاء في ركن هادىء أو أثناء الوقوف والعمل. والقصد من ذلك إخضاع الزمن للصلاة بصورة فعلية. على أن ننتهز فرصة الصباح والمساء، أي قبل العمل وبعده، ونؤدي فيهما صلاة باكر وصلاة النوم كاملتين، كإعلان وشهادة على تمام استعداد النية لتكريس أقصى ما يمكن من الوقت لله.

أما صلاة نصف الليل فالمعونة والنعمة والقوة التي يحصل عليها كل من يمارسها، كفيلة أن تعوِّض كل تعب أو مشقة نظن أننا سنكابدها في القيام للصلاة في هذه الساعة المتأخرة. والمعروف والمتيقن عندنا أن لهذه الصلاة ملاكَ معونة خاص. أما في حالات السهر أثناء العمل، فلا يمكن أن يُحرَم الإنسان من دقائق في منتصف الليل لمشاركة بني النور في التسبيح للعريس. وصلاة نصف الليل وإن كانت ترمز إلى تمام السهر ومقابلة العريس، فالواقع أن ذلك يتم بالفعل بصورة جزئية كفيلة أن تجعل ختام كل يوم عبارة عن بلوغ الغاية والنصرة بملاقاة الرب.

والآن وقد أصبح قانون الصلاة نوراً حقيقياً نهتدي به إلى ملاقاة الرب، إذن، نستطيع أن نقول إن **التدقيق في تتميم القانون يُزيدنا قُرباً لله**. ومن ملاقاة الرب كل يوم، تزداد الأُلفة والمحبة والدالة بيننا وبينه، والنتيجة أن الصلاة نفسها تزداد حرارة ولجاجة وحباً. والمسيح يطلب فعلاً أن تكون صلاتنا بلجاجة وثقة، وضرب مثلاً على ذلك بالأرملة التي ما فتئت تذهب كل يوم إلى قاضي المدينة تطلب بلجاجة أن ينصفها من خصمها، فأنصفها بسبب لجاجتها مع أنه كان ظالماً. ثم نبه ذهننا إلى قيمة اللجاجة في الصلاة إلى الله: «أفلا يُنصف الله مختاريه **الصارخين إليه نهاراً وليلاً وهو متمهِّل**

عليهم، أقول لكم إنه ينصفهم سريعاً» (لو ١٨: ٧ و٨).

عطية الصلاة

والتدقيق واللجاجة في تتميم قانون الصلوات، وأدائه بإخلاص وحب ومثابرة، ليس هو مجرد واجب نؤديه بتعصُّب كأننا نعطي الله شيئاً من وقتنا وقوتنا وكفى، إذ لو كان قانون الصلاة مجرد واجب ما كان المسيح ألحَّ علينا هذا الإلحاح المتواصل للصلاة، ولكن وراء **التدقيق والمثابرة في الصلاة عطية** ـ شأن كل قانون روحي ـ عطية ثمينة جداً، أثمن من كل حاجة يحتاجها الإنسان أو تخطر على باله، بل أثمن من أمجاد الأرض كلها، هذه العطية هي **الروح القدس** الذي يشتهي الله أن يهبه للإنسان، ولكن ليس جزافاً بل ثمناً للصلاة والتوفر على السؤال: «فكم بالحري الآب الذي من السماء **يعطي الروح القدس للذين يسألونه**» (لو ١١: ١٣). **انظروا ثمن الصلاة وتأملوا قيمة التدقيق والمثابرة في أداء هذا القانون السعيد، كيف يؤهلنا لنوال الروح القدس!!**

فلو علمنا أن الروح القدس هو الذي يسكب المحبة في قلوبنا، وهو الذي يهبنا الاتضاع ويعطينا السلام القلبي، ويشدد إيماننا بالله ورجاءنا في الحياة الأبدية، وينير بصيرتنا لنعرف الحق ومشيئة الله، بل ويُلهب قلوبنا بروح الصلاة ويدفعنا للوقوف والسهر بقوة ونشاط تفوق قدرة الجسد؛ حينئذ ندرك المكسب العظيم الذي نحصل عليه بالصلاة. وهنا سر إلحاح المسيح علينا بالصلاة، إذ أن ثمن الصلاة هو أخذ الروح القدس الذي بدونه لا يساوي الإنسان شيئاً بالمرة.

إذن، فالصلاة هي قانون الحياة الروحية الأول، وهي سر التدبير الروحي المتقَنْ وكمال كل سعي في طريق الله، إذ بواسطتها ينال الإنسان الروح القدس الذي يكمِّل لنا كل تدبيرنا.

الفصل الثاني

تقديس الفكر

أولاً - الأفكار والتصورات الجنسية

عقل الإنسان يتأثر وينطبع بنوع الاهتمام الذي ينجذب إليه قلب الإنسان وشهوته كقول الرب: «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً» (مت ٦: ٢١). فالإنسان الذي يريد أن يعيش بفكر مقدس، عليه أن يحصر اهتماماته في الأمور المقدسة ويجعل مسرته في أقوال الله وخدمته وفي سير القديسين وأخبارهم وأقوالهم ومراحم الله معهم.

الهرب من خبرة الشر لأنها سوف تطاردك

خبرة الشر وممارسة الخطية وفتح العين والأذن على القبائح، يعبىء الفكر بذخيرة نجسة من المناظر والصور والكلمات التي ينتفع بها الشيطان ويستخدمها ليتاجر بها مع العقل، فيؤلف منها تخيلات وقصصاً وحوادث في اليقظة والنوم لا تنتهي. لذلك، **فبداية تقديس الفكر تبدأ بالجزع من الشر والهروب من المناظر والكلمات والأخبار الشريرة بعزيمة وتصميم حتى الموت.** لأن أقل تهاون سيدفع عنه الإنسان بعد ذلك ثمناً باهظاً من الندم والجهاد للتخلص من الآثار والنتائج.

ولا تستهِنْ بالصور والمناظر والكلمات القبيحة إذا وقعت عليها عيناك وأذناك واستحسنتها، **لأنها سوف تطاردك** وتغريك للتنازل والتلذذ بها أكثر، فإذا تهاونتَ معها في البداية، سوف تتسلط عليك في النهاية بالرغم عن إرادتك، فتهين طهارتك، وتوسخ نيَّتك، وتذلُّ عقلك، وتوردك موارد الهُزء،

وتجعلك آلة في يد الشيطان. ترفضها فتتبعك، تجحدها فتتمسك بك، تنساها فتمثل أمامك ولا تتركك حتى تدفع لها ثمناً باهظاً من وقتك وصبرك وعزيمتك.

ضع حداً فاصلاً بين النجاسة والطهارة

بداية تقديس الفكر في التدبير الروحاني أن يضع الإنسان حداً فاصلاً بين النجس والطاهر، الحلال والحرام، فلا يستحسن النجاسة ولا يقبل الحرام، لا بالعين ولا بالأذن ولا بالفم ولا بالفكر ولا بالضمير، بل يرذلها سراً وعلناً، ويرفضها من كل قلبه باعتبار أن الموت يكمن له فيها.

لا تستعذ النظر في الوجوه بقصد الشهوة

الإنسان إذا تنجَّست عيناه، تنجس قلبه، لأن باب القلب هو العين كما قال الرب يسوع: «إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (مت ٥:٢٨). ولكن يا ليت الأمر يقتصر على ذلك، بل إن صورة المرأة إذا التقطتها العين باشتهاء، فإنها تنطبع في المخيلة لحساب الشيطان، وحينئذ ينسخ منها الشيطان آلاف النسخ، كحق من حقوقه، ليعرضها عليك في كل لحظة فيثير شهوتك ويلوِّث ويعذب نفسك حتى بعد التوبة والاعتراف.

لذلك يقول الرب: «إن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً» (مت ٦:٢٣)، **أي أن الفحص يبدأ بالعين.**

قبل أن تتقدم للاعتراف والتوبة والتناول لتتخلص من خطاياك **افحص أولاً عينك** هل هي بسيطة أم شريرة لأنه: «إن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّراً» (مت ٦:٢٢)، بمعنى أن **القداسة التي تطلبها وتسعى إليها لن تسكن جسدك طالما عينك شريرة أو زانية.** فلو اعترفتَ ألف مرة وعينك شهوانية تختلس النظرات للتلذذ بالجمال الزائل

والأجساد التي سيأكلها الدود، فلن يقدِّمك الاعتراف إلى التوبة الحقة لأن الخطية رابضة بالباب ولك اشتياق إليها.

اجعل جسدك منيراً

الجسد مظلم بطبيعته التي فسدت بالخطية، فالغرائز أصبحت تتصارع فيه بدون لياقة، لأن الخطية جعلت المعرفة تخدم النجاسة، وسخَّرت عبقرية الإنسان للتفنن في إثارة الغرائز، والعين التي خلقها الله لترى بها النور تركت عنها النور واشتغلت بالزنا.

لذلك يقول الرب مُخاطباً الإنسان: «فإن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون» (مت ٦: ٢٣)، بمعنى أن العين إذا أحبت الظلمة فماذا سيكون الجسد إلا أتوناً مُستعِراً يوقد الشهوات، يحرق نفسه بنفسه، إلى أن تضمحل قُوى الإنسان ويذهَب نور عينيه بلا رجعة! وكم من أجساد أضمرتها الشهوة، وأسكنتها القبور وهي في ريعان الشباب؟

الآن ندرك قيمة كلمات أيوب الصديق: «عهداً قطعتُ لعينيَّ فكيف أتطلع في عذراء؟» (أي ٣١: ١). هذه بداية حتمية لمن يريد أن يعيش في الطهارة لأن قول الرب حق هو: «إن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً» (مت ٦: ٢٢). **إذن، فبساطة العين هي مفتاح الطهارة، لأنها حينئذ لن توصِّل إلى الفكر أي تنبيه شهواني، وبالتالي تظل أعضاء الجسد هادئة بدون إثارة.**

العين البسيطة لا تتعدى وظيفتها، أي الرؤيا الطاهرة في نور الله الخفي. فحينما يقع شعاع الله على وجوه الناس، فلا يميز الإنسان ذو العين البسيطة الطاهرة بين الجميل والقبيح لأنه يكون منشغلاً بالرسالة الروحية التي تربطه بكل إنسان ــ أياً كان ــ وحينئذ يكون الفكر أثناء كل منظر، بسيطاً أيضاً، بمعنى أنه يكون حراً يفكر فقط فيما لله.

فرّغ عقلك من خبراته الجنسية بكشفها لله متواتراً

طالما الفكر منشغل بالتصورات الشريرة وبالأخص في المناظر الجنسية، فالجسد كله يظل في حالة إثارة مستمرة، والغرائز تكون منتبهة، فتزداد حساسية الأعضاء شيئاً فشيئاً بميكانيكية تلقائية تتخطى كل قوة وكل احتراس أو كبت. والشعور بالحرمان يُزيد الإثارة أكثر. إذن، فبداية إصلاح هذا النشاط الجنسي المفتعل غير الطبيعي لا يبدأ بالجسد ولكن يبدأ بالفكر.

ولكي يعود الفكر إلى بساطته الأولى، يلزم تفريغ العقل من ذخائره في المحرّمات ومحفوظاته عن الجنسيات، لأن التفكير في أمور الجنس بغير الزواج، يُزيد من الإحساس بالحرمان. هنا يلزم للإنسان أن يسلِّم عقله الباطن لروح القداسة لكي يتنازل عن ارتباطه السابق بالمناظر والمواقف والخبرات الجنسية التي اختزنها خلسة والتي يعبُر عليها أولاً بأول، لأنه منذ اللحظة التي يبدأ فيها الإنسان باتفاق كلي مع ضميره، بكشف قلبه لله وعرض كافة النقائص التي تعلَّق بها مع الشعور بتفاهتها، يبدأ يقل انطباعها في الذهن شيئاً فشيئاً إلى أن تنمحي آثارها. كذلك يلزم أن لا يُبقي الإنسان في قلبه أفكاراً أو مناظر يحتفظ بها لنفسه، ولا يعرضها على الله، سواء في الصلاة باستمرار، أو في اعترافاته، لأن هذه تعتبر جيوباً للعقل الباطن.

اغلب الشعور بالحرمان الجنسي بأن تقبله وترضى به

ولكي يتخلص الإنسان من الشعور بالحرمان الجنسي الذي يُعتبر المثير الأول للأفكار والحواس، وخاصة عند مواجهة الجنس الآخر، يلزم الاعتراف به بأمانة أمام الله، وقبوله بدون مداراة أو تعالي أو كبت، فيعترف الإنسان أنه قَبلَ ذلك الحرمان الجسدي وارتضى به سراً وعلناً إكراماً للطهارة وتقديساً للروح، مُعتبراً أنه قد أقدم عليه بإرادته كذبيحة يقدمها لله من نفسه وجسده وشعوره. لأن حفظ الطهارة لله يعتبر ذبيحة حية من صلب الجسد،

تحوي أرقَّ المشاعر، ولا تقلُّ عن تقديم الحياة نفسها. والمعروف أن الرضا بالحرمان يلغي معنى الحرمان، أما قبوله بفرح فيُلغي تأثيره السلبي على الأجهزة الباطنية في الإنسان.

اختن عينيك بسكين النعمة

عملية ختانة العينين لانتزاع شهوة التلذذ الجنسي منها وضبطها بدقة حتى تكف عن التفرس في الوجوه عامة، وبالأخص إذا كانت مُعثِرة، تُعتبر من أهم وصايا التدبير الروحي.

ومركز مراقبة العينين وضبطها وختانتها يبدأ في المخدع حينما يقدم الإنسان عينيه لله ليقدسهما ويطهرهما بمسحة الروح القدس.

وقد قدمنا ختانة العينين على ختانة القلب والضمير وتفريغهما من الميول الجنسية، لأن حتى ذوي القلوب الطاهرة إذا لم يضبطوا أعينهم تماماً فسوف تتسلل لهم العثرات من خلال التطلع في الوجوه عندما يكون التطلع بلا احتراس أو لياقة.

إذن، فضبط العينين وصية أولى وهامة وعامة. ومن المفيد جداً عندما يتطلع الإنسان في وجه امرأة، تحت اضطرار الظروف، أن يربط قلبه في الحال بالله سراً ويجعل تفكيره جدياً حازماً ويتجنب المزاح. **أي أن ضرورة اعتياد الفصل بين الفكر والعين وقت النظر إلى الوجوه أمر حيوي لمن يريد سلامة نفسه وطهارة تدبيره.**

وهذا سر من أسرار القديسين، لأنهم إذا اضطروا أن يتطلعوا لوجوه الناس، فإنهم حالاً ينسونها فلا يتذكرون أشكالها ويكتفون بذكر أسمائها أمام الله.

اختن قلبك بعهد أبدي

أما الخطوة الثانية لتقديس الفكر، فهي ختانة القلب والضمير وتفريغهما من الميول الجنسية والتلذذ بها. لأن انشغال الفكر بالتخيلات والمناظر الجنسية مبعثه الأصلي اشتهاء قلبي لهذه الأمور. **فمهما حاول الإنسان أن يقطع عنه الأفكار والتصورات الجنسية قبل أن يلغي من قلبه وضميره اشتهاءها والتلذذ بها، فعبثاً يحاول حتى ولا بحرق الجسد.** وختانة القلب تعني قطعاً حاداً، وتعني ألماً شديداً. **ولن ينفع الإنسان أن يبغض الشهوة مرة ويميل إليها مرة، يجحدها اليوم ويتودد إليها غداً، يلعنها علناً ويسامرها سرا.**

الأمر يحتاج إلى تعهُّد قلبي أمين كما فعل أيوب: «عهداً قطعت لعينيَّ»، وذلك أمام الله القدير، مع نُطق علني بشهادة النية الخالصة أمام الملائكة، بأن يكف الإنسان كفاً نهائياً عن الانشغال الباطل بالأمور الجنسية ومناظرها سواء في خارج البيت أو داخله، على أن يقطع بأن لا يعطي فرصة للعين ولا الأذن لرؤية أو سماع شيء عن هذه الأمور ويتخذ كل الإجراءات التي تكفل له ذلك بكل حزم.

وعلى الإنسان أن يتحقق من إخلاص نيته بتفتيش ضميره كل يوم. وأكبر برهان على نجاح خلوص نية الإنسان في الكف عن اشتهائه الباطل للأمور الجنسية، يظهر في هدوء الفكر قليلاً قليلاً وتوقُّف التصورات الشريرة التي كانت تلاحق الإنسان.

على أن مقدار النجاح واستمراره سيتوقف على نوع التعهد القلبي الذي سيقدمه الإنسان أمام الله للكفِّ عن الانشغال الباطل بالأمور الجنسية. فالتعهد ينبغي أن يكون:

أولاً: عن اقتناع روحي وليس عن اضطرار جسدي.

ثانياً: يكون بإحساس مَنْ سيكسب وليس بإحساس من سيَخْسر.

ثالثاً: يكون برضاً وفرح داخلي، وليس بكآبة وحزن.

رابعاً: أن يكون على أساس الاستمرار فيه حتى الموت وبدون تراجع أو مهادنة لأي ظرف، حتى وبعد الزواج، لأن الزواج لا يعني ولا يحتمل الانشغال الذهني بالأمور الجنسية.

وبهذا يصبح التعهد إيجابياً محضاً، بمعنى أن يكون التعهد خالياً من الكبت والكآبة والندم والاستثناءات وتمني الرجوع فيه.

ومن المفيد أن يكرر الإنسان هذا التعهد أمام الله بنطق الفم وبالقلب في عدة مناسبات مقدسة.

على أن أي إخلال في التعهد من جهة الإنسان، بسبب عثرة العين أو سقطة الضمير، ليس كفيلاً بأن يلغي التعهد إطلاقاً، لأن الله الذي هو طرف ثان فيه سيبقى أميناً بالرغم من عدم أمانتنا، كما أنه سيستمر في معونته بلا توقُّف، فلا ينبغي أن ييأس الإنسان قط لأن ضعف الإنسان معلوم لدى القدير، **وعثرة الإنسان لن تلغي كثرة مراحم الله بأي حال من الأحوال.**

ثانياً - أفكار الدينونة

فكر الدينونة يكشف عن حالة بغضة، وهي تؤدي إلى هلاك النفس

أفكار الدينونة مهما بدت بسيطة في عين صاحبها، فهي تُعبِّر عن حالة بغضة تكون قد أصابت القلب من نحو الآخرين. وهي تظهر في أحلام الليل على حقيقتها كعداوة سافرة بصورة خصام وتحدي وتعدي.

لذلك، فالدينونة إذا ركبت فكر الإنسان، فهذا معناه أنه قد تغرَّب عن

كافة وصايا المسيح: عن المحبة والمغفرة والسماح، وذهب يُفلّح في أرض الشيطان، وقد سلّم قلبه للقاسي، ليملأه قساوة أكثر من يوم إلى يوم.

فإذا ابتدأتَ تُدين أي إنسان فاعلم تماماً، وقبل أن تفحص الأسباب وتقدّم الأعذار وتبرّر نفسك، أنك قد خرجتَ عن طريق الرب، وبدأتَ تغوص في الوحل، وغشيَتْكَ الظلمة وأنت لا تدري ولا تعلم إلى أين تذهب. والأمر خرج عن كونه دينونة الآخرين وأصبح هلاك نفسك أنت.

لذلك اعتبر الآباء أن انشغال الفكر بدينونة الآخرين هو بمثابة توقُّف عن كل نمو، ثم يتعداه إلى فقدان كل ذخيرة الإنسان الروحية التي جمعها بالتعب كل أيام حياته. وقد شبَّهها بعض الآباء بثعبان يسرق كل يوم البيضة التي تبيضها الفرخة! فيضيع كل تعبها باطلاً.

والمسؤول المباشر الذي يحرك الفكر بدينونة الآخرين هو **الإحساس بالذات**. لذلك، فالدينونة علامة أكيدة على أن الإنسان لا يزال يطلب الكرامة والمديح، وبالتالي لا يحتمل الإهانة أو النقد أو التوبيخ أو مجرد التصحيح.

والدينونة حينما يصبُّها الإنسان على رؤوس الآخرين يكون لها دوافع متعددة نحصرها في الآتي:

١ – **دافع الانتقام والتشفّي**: وذلك لتعويض جرح يكون قد أصاب الإنسان من الشخص المُدان.

٢ – **دافع احتقار الآخرين والحطّ من سمعتهم**: لإخلاء الطريق أمام الذات من المنافسين لها.

٣ – **دافع الغيرة الكاذبة المفتعلة على الدين والعقيدة والحق والأصول**: وذلك لتغطية التصرفات الخاطئة والجهالة وابتزاز المال أو المحبة

من السامعين.

٤ – **دافع السخط والتبرُّم العشوائي**: وذلك بسبب عدم راحة الذات وإحساسها بالحرمان من العطف أو العظمة أو التكريم اللازم لها.

٥ – **دافع التمويه على الحق**: للهروب من الملامة أو استعداداً لاتخاذ موقف يخالف الضمير أو تبريراً لسلوك خاطىء.

وفي هذه الدوافع كلها تظهر الذات البشرية متلبسة وحدها بجريمة الدينونة، مما يجعل الإنسان الأمين للحق والله يبغض ذاته فعلاً ويجحدها كوصية الرب.

والعلاج الذي يشفي الفكر سريعاً من لوثة الدينونة هو: ضبط الذات وهي متلبسة بجريمة تحريض الفكر، وفرزها وجحدها، ثم كشف نوع الدافع الذي دفع الذات لارتكاب الدينونة وعلاجه بالاعتراف أولاً ثم بالمحبة والصلاة والاتضاع، وقبول جميع الأوضاع التي هيجت الذات كأنها من يد الله.

الفصل الثالث

إنكار الذات

مجاهد أرضي

العمود الفقري للتدبير الروحي الذي يحمل كافة الفضائل والمواهب وأنواع الجهاد ويحفظها دون أن تسقط على الأرض هو "إنكار الذات."

«من أراد أن يأتي ورائي **فلينكر نفسه**» (مر ٨: ٣٤). فالإنسان عندما يبدأ الجهاد الروحي يُهاجَم أول ما يُهاجَم **بخطية محاولة تمجيد الذات**، والإعلان عن فضيلته إن لم يكن **بالتصريح العلني** كالجُهَّال **فبالتلميح** كالمحتالين. وذلك بقصد أن يتصيَّد الإنسان الكرامة والمديح من الناس، فتكون النتيجة المضحكة المبكية أن كل الجزاء الروحي الذي كان يستحقه الإنسان من الله يضيع سُدىً. بمعنى أن التقدم الروحي يتوقف، واحتمال قبول النعمة والدخول في أسرار المسيح يُلغَى، حتى ولو بلغت أصوامه وصلواته وأسهاره وخدماته أعلى درجاتها! إذ يُعتبر الإنسان أنه مجاهد أرضي يسعى وراء المجد الدنيوي.

+ «**لكي ينظروكم** ... فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات» (مت ٦: ١).

+ «**لكي يُمجَّدوا من الناس**. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم» (مت ٦: ٢).

+ «**لكي يظهروا للناس**. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم» (مت ٦: ٥).

قيمة الجهاد ضد الذات في التدبير الروحي

التدبير الروحي يستلزم قبل كل شيء أن يفهم الإنسان ويتيقن أنه إما أن يختار تمجيد الله، أو أن يختار تمجيد نفسه. **ومعنى أن يختار الإنسان تمجيد الله فهو أن يجحد نفسه دائماً**، وجحد النفس في التدبير الروحي يحتاج إلى يقظة ومثابرة، لأنه في اللحظة التي يكف فيها الإنسان عن جهاده ضد الذات فإنها تعود إلى أصلها. وإنكار الذات يتم على درجتين:

الدرجة الأولى:

جعل تدبيرنا الروحي سراً من أسرار اعترافنا نمارسه في الخفاء بكل حذر حتى لا يشتهر بين الناس، تحاشياً لأي تكريم، لأن تكريم الناس معناه ضياع كل أملٍ في فرصة النمو الروحي بسبب اكتفاء الذات وانتفاخها! ومعروف قطعاً أن الجزاء الروحي أو "الأجر" عن التدبير الروحي هو النمو في معرفة المسيح والاتحاد به، وهذا يشترط حالة اتضاع.

الدرجة الثانية:

الهروب من أسباب التكريم بكافة الوسائل، حتى أن السيد المسيح له المجد اقترح على الصائم أن يغسل وجهه ويدهن رأسه بالزيت حتى يبدو مظهره أنه غير صائم. إلى هذا الحد **بلغ حذر المسيح واهتمامه أن لا يَظهر تدبيرنا الروحي للناس، وذلك بالهروب والتخفي عمداً، خوفاً من السقوط في الكرامة** التي معناها ضياع كل حق في الروحيات! وليتنا لا ننسى الويل الذي أعطاه الرب للذين يُمجَّدون من الناس: «ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً» (لو ٦:٢٦). لأن هذا معناه أن يكون الإنسان قد استوفى أجره مديحاً، وحينئذ تكون الحصيلة النهائية من كل الصلوات والأصوام والأسهار هو ما سمعه أولئك المحترفون للروحيات: «إني لم أعرفكم قط! اذهبوا عني يا فاعلي الإثم» (مت ٧:٢٣).

حِيَل الذات لتمجيد نفسها

+ حينما يلمح الإنسان في ذاته أنه يحاول إخفاء عيوبه وإظهار فضائله، فليعلمْ أن تدبيره مكسور. وهذه من حيل الذات.

+ أما إذا حاول الإنسان أن يُظهر عيوبه لكي تُحسب له فضيلة، فهو يتاجر بالخطية عوض الفضيلة، ويخاتل الناس ليصيد منهم الكرامة بأبخس الأثمان.

+ فإن كنتَ تحاول أن تُظهر عيوبك بالرغم من أنك لا تحتمل أن يذمك إنسان، بل تدافع عن كرامتك وفضيلتك بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، فهذه مناقضة تهدم تدبيرك من أساسه. وهذه من حيل الذات.

+ ثم يوجد إنسان أيضاً يُظهِر عيوبه محاولاً بذلك أن يوهم الناس أنه يتعمد إخفاء فضائله، وهو في الحقيقة ليست له فضائل وجهاده ضعيف؛ هذا يقفل على نفسه الطريق قبل أن يسير فيه ويتاجر برأس مال وهمي وهو ليس له رصيد عند الله، وهذه من حيل الذات.

ونحن لو عرفنا أن الذي تنكشف فضائله سهواً دون قصد أو تعمُّد تضيع أيضاً عليه فرص النمو!! لأنه من العسير أن يفلت من مديح الناس، ثم بالتالي من العسير عليه أن يفلت هو من استحسانه للمديح؛ حينئذ سوف نعتبر أن كشف الإنسان أعماله الروحية بالتحايل أو التعمد هو نوع من الانتحار الروحي.

في العلاج

+ لا تهرب من المذمة.

+ لا تحاول الدفاع عن نفسك وأنت مخطيء.

+ لا تتملَّص من مسؤولية فشلك أو إهمالك أو جهلك.

+ احتمل الاتهام والانتقاد بهدوء وصمت حتى ولو كنت بريئاً، فخطية غيرك ليس غريبة عنك كثيراً.

+ اقبل التجربة ولو كانت فوق طاقتك، فالتململ من التجربة يُضيِّع عليك إنكار نفسك.

+ اصمت إزاء الظلم، لأنه عتيد أن يريحك من عتوِّ ذاتك.

+ افرح إذا أُشيع عنك أخبار غير صادقة بقصد فضيحتك، لأن ذلك سيعتقك من الكرامة والمديح اللذين هما آفة التدبير الروحي.

+ لا تجلس على كراسي التعليم قبل أن تُكمِّل توبتك، لأنه جيد للإنسان الذي لا يزال في زمان التوبة أن يجلس وحده ويصمت.

الفصل الرابع
الأمانة والتدقيق في تنفيذ وصايا الإنجيل

الوصية قوة سرية دافعة

الإنجيل هو المصدر الأول للتدبير الروحي. والسر العجيب الذي في الإنجيل هو أن **أية وصية فيه قادرة أن تقودك بمفردها لملكوت الله لو أخلَصْتَ لها من كل قلبك** ودققت في تنفيذها، لأنك إذا نجحت في تنفيذها تجد نفسك دون أن تشعر تُطبِّق بقية الوصايا. فالإنجيل يوصيك بالمحبة القوية الطاهرة الكاملة الشاملة، فإذا أخلصتَ للمحبة من كل قلبك، وكرَّست فكرك وضميرك ووقتك ومالك وذاتك لتنفيذ واجباتها بكل أمانة، تجد نفسك في نفس الوقت تسلك بالوداعة والاتضاع دون أن تشعر، كما تجد قلبك دائماً أبداً مرتفعاً إلى الله بالشكر والتسبيح والصلاة، ونفسك في الداخل تصير فرحة نشيطة في حالة يقظة واستعداد مستمر للعطاء والبذل. وهكذا تتمم وصايا الاتضاع والصلاة والسهر الداخلي والبذل والعطاء بجوار المحبة، ومن خلفها، دون أن تبذل أي جهد فيها. هذا لأن **الوصية في حد ذاتها قوة روحانية ونور سماوي وروح وحياة كقول الرب، فبمجرد أن ينفتح قلب الإنسان لقبولها قبولاً كاملاً يصبح في مستوى كل وصية أخرى ويتحرك لتنفيذ بقية الوصايا بإلهام ومعونة.**

الإنسان صعب تغيير طباعه وأخلاقه وسلوكه، وخصوصاً إذا كان فيها نوع من الانحراف أو الشذوذ أو المرض الموروث. وكثيراً ما يقف الطب وعلم النفس عاجزاً إزاء العلة النفسية، أما إذا أفلح في إصلاح شيء منها فبعد مشقة وزمن كثير. ولكن العجيبة التي تحدث أمام عيوننا كل يوم في أنفسنا

وفي إخوتنا، أن الطباع تتغير والعلل تزول والعقد النفسانية تنحل والسلوك يتبدل، والقلب والفكر يتجددان، وكأنما الإنسان أصبح شيئاً آخر غير نفسه الأولى، وذلك بممارسة وصايا الإنجيل يومياً بإيمان واهتمام وتدقيق.

إن سر تغيير الإنسان وتجديده قائم في تنفيذ وصايا الإنجيل قبل أي شيء آخر. فبمجرد أن يبدأ الإنسان في تنفيذ أية وصية، ينال في الحال مع التنفيذ قوة روحانية ونوراً داخلياً وروحاً جديداً ويشعر بحياة أخرى تدبُّ في كيانه.

وتغيير الإنسان وتجديده يتماشى خطوة خطوة مع أمانة التنفيذ أولاً بأول.

الاتحاد القلبي بالوصية هو سر نمو التدبير الروحي

«وُجِدَ كلامك فأكلتُه. فكان كلامك لي للفرحِ ولبهجة قلبي» (إر ١٥:١٦).

القوة الروحية التي يتحصل عليها الإنسان من تنفيذه للوصية هي بذاتها كافية أن تدفعه للاستمرار في التنفيذ أكثر فأكثر؛ وذلك إذا تمسك الإنسان بالدقة ولم يتهاون. والفرح الداخلي الذي يحسه الإنسان من جراء نجاحه واستمراره في التنفيذ، يشهد لهذه القوة الروحية.

هذه القوة الروحية قوة خلاقة، فهي روح وحياة حقاً، حينما يستقبلها الإنسان في كيانه، **لا تظل مفصولة عنه بل تتحد به شيئاً فشيئاً** على قدر خضوعه لها وتوافقه معها، **فبقدر ما يأخذ منها يتغير إليها وبقدر خضوعه لها يرتفع إلى مستواها،** ولكن يظل الإنسان يشعر بل ويحتفظ بضعف طبيعته الأولى بجوار إحساسه بقوة هذه النعمة التي صارت مِلْكه: «لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي» (٢كو ١٢: ١٠).

ولكن الوصية ليست سهلة دائماً ولا مُفرحة في مظهرها، بل مُرة أحياناً وخشنة في مظهرها غاية الخشونة. فمنطوق أية وصية يوحي بالخسارة والجهد والتعب والعنف أيضاً. فمثلاً:

«اسهروا وصلوا» (مت ٢٦:٤١).

«ينبغي أن **يصلّى كل حين ولا يُمل**» (لو ١٨:١).

«إن أراد أحد أن يأتي ورائي **فليُنكر نفسه ويحمل صليبه** ويتبعني» (مت ١٦:٢٤).

«إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه» (لو ١٤:٢٦).

«من لطمك على خدك الأيمن فحوِّل **له الآخر أيضاً**» (مت ٥:٣٩).

«من يسخرك ميلاً واحداً فاذهب معه **اثنين**» (مت ٥:٤١).

«من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك **فاترك له الرداء أيضاً**» (مت ٥:٤٠).

«من أراد أن يقترض منك **فلا ترده**» (مت ٥:٤٢).

«**أحبوا أعداءكم**، باركوا لاعنيكم، ... صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم» (مت ٥:٤٤).

«لا تكنِزوا لكم كنوزاً على الأرض» (مت ٦:١٩).

«لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد» (مت ١٠:٢٨).

«إنْ أعثرتك عينك فاقلعها» (مت ١٨:٩).

«اجتهدوا أن تدخلوا من الباب **الضيق**» (لو ١٣:٢٤).

«ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً» (لو ٦:٢٦).

وهكذا نجد أن كل وصايا الإنجيل تسلّحت بطَعم خارجي مُرٍّ، وبمظهر خشن لكي تصدَّ الذين يريدون أن يتحايلوا على الإنجيل ليستخدموه دون أن يأكلوه، أي لينتفعوا به دون أن يتحدوا به. فالإنجيل لا يصلح أن يكون للتسلية، وقوته لا يهبها إلا لمن عزم أن يقتات كل يوم على كلماته، ليحوِّل وصاياه إلى أعمال وشهادة، ويغلب مرارة الوصية بفرح الأعمال.

كلُّ من يوافق على مظهر الآية الخشن ويقبلها كخسارة وجهد وتعب وعنف حياة، حينئذ يدخل إلى جوهرها المملوء ربحاً وفرحاً وسلاماً وشركة حياة مجيدة مع الرب.

الإيمان هو القوة السرية التي يعتمد عليها الإنسان في تنفيذ الوصايا

الإيمان يرفع الإنسان لمستوى الوصية.

من الأمور التي تُضعف تدبيرنا الروحي جداً عدم إدراكنا لقوة الإيمان، ثم عدم استخدامنا لهذه القوة في حياتنا.

فالإيمان هبة يعطيها الله للإنسان ليستخدمها في تدبير حياته، فهي قوة وطاقة روحية إضافية أعلى من كافة القوى البشرية الطبيعية التي يعتمد عليها الإنسان. فكل ما يعسر على الإنسان عمله أو تنفيذه بقوته وقدرته وكل إمكانياته يستطيع أن يعمله بالإيمان.

والمعروف قطعاً أن وصايا المسيح جميعها لا يمكن تنفيذها بالقوة أو القدرة الطبيعية البشرية، لذلك أفهَمَنا المسيح بوضوح أنه «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو ١٥:٥).

لذلك شجعنا جداً أن يكون لنا إيمان به، أي نثق بقوته وقدرته اللانهائية بقوله: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت ٢٨:١٨).

ثم أعطانا سر الاتصال الدائم به لطلب المعونة في وقتها بواسطة «اسمه»:

«مهما سألتم **باسمي** فذلك أفعله ليتمجد الآب بالابن» (يو ١٤: ١٣).

اسم المسيح قوة ذات امتياز خاص

ويُلاحظ أن الطلب أو السؤال يلزم أن يكون للآب باسم المسيح، وذلك طبعاً اعتماداً على استحقاقه الشخصي لدى أبيه كابن، ثم إنابته عنا لدى الآب بواسطة الصليب.

أي أنه لا يمكن أن يكون للصلاة استجابة لدى الآب من أجل خاطرنا نحن، أو من أجل خاطر ضعفنا أو مذلتنا، أو الظلم الواقع علينا، أو حاجتنا الشديدة، أو خطورة موقفنا، أو شدة آلامنا، أو حتى محبتنا لأنه لا يوجد لنا دالة أو استحقاق لأية معونة لدى الله إلا بيسوع المسيح. إذ بدون يسوع المسيح نحن خاضعون تماماً لقوانين الطبيعة وظروفها المجحفة، ومعاندة الشيطان وأمراض الجسد ومعاكسة الأشرار. ولكن يسوع المسيح قهر الموت والخطيئة والشيطان ورفع الجسد من التراب وأجلسه في السمويات. إذن، نحن بالإيمان بيسوع المسيح وباسمه نصير خليقة روحانية ذات امتياز خاص، يمكن أن تسود فوق الطبيعة والشيطان والجسد والموت نفسه، أي أن إيماننا بالمسيح يسوع ودعاءنا باسمه لدى الآب يجعلنا نُعامَل كروحيين، ويعطينا حق امتياز البنين، فنطلب ونأخذ كروحيين وليس كجسديين وإنما باستحقاق يسوع المسيح نفسه، على أن لا تخرج طلباتنا خارج حدود الروحيين وبمقتضى وصايا المسيح.

أي أن العلاقة بين الإيمان بالمسيح وتنفيذ وصاياه علاقة جوهرية أساسية كشفها المسيح نفسه، فإمكانية تنفيذ الوصية مستترة في سر السؤال والصلاة للآب باسم المسيح.

الحصول على امتياز استخدام اسم يسوع المسيح

ولكن يستحيل أن نصلي لدى الآب باسم يسوع المسيح بدون أن يكون لنا صلة وإيمان وحب للمسيح نفسه. فينبغي قبل الصلاة للآب باسم الابن أن تحصل أولاً من الابن على حق استخدام اسمه، وذلك إنما يكون بقبول عار الصليب وقبول الاشتراك معه في حمله علناً باعتراف وشهادة أمام العالم دون إنكار أو خوف أو تهرُّب، هذا شرط أساسي اشترطه المسيح نفسه:

«كل من يعترف بي قدام الناس أعترف أنا أيضاً به قدام أبي الذي في السموات» (مت ١٠:٣٢).

وهكذا عندما تثبت أمانة الإنسان للمسيح يسوع بشهادة علنية، حينئذ يستأمنه المسيح على اسمه لكي يتقدم به إلى الله الآب بدالة واستحقاق، كمن يتقدم بختم خصوصي وتوكيل رسمي ليسحب من رصيد يسوع المسيح لدى أبيه.

والمعروف بدون جدال أن رصيد الآب قد سُلِّم كله للابن بمقتضى طاعة يسوع المسيح للآب التي كملت بالموت على الصليب نيابة عن الخليقة كلها.

فنحن بواسطة حمل الصليب علناً، نأخذ كل ما للمسيح وبالتالي كل ما للآب. وهكذا، فالصلاة باسم يسوع المسيح تعطينا حق الاستجابة كأن المسيح هو الذي بنفسه يطلب من الآب. لذلك، حقاً قال لنا: «بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئاً» (يو ١٥:٥).

شروط لنوال سر الإيمان

سر الإيمان كقوة فاعلة لا يوهب لكل من يؤمن بالمسيح جزافاً وإنما يستلزم شروطاً هامة، حينما يستكملها الإنسان يُستأمن على سر الإيمان وقوته وسلطانه. هذه الشروط بعضها سلبي وبعضها إيجابي، والشروط السلبية هي بذاتها تهيىء للشروط الإيجابية وتوصِّل إليها، ومهما بدت هذه الشروط

صعبة في البداية فإنه بمجرد أن يشرق الإيمان بقوته الفائقة في القلب تصير سهلة جداً ويتحقق الإنسان من عظم أهميتها.

الشروط السلبية

أولاً: عدم الاعتماد على المعرفة البشرية

فالمعرفة البشرية تقوم على أصول ومبادىء تختلف اختلافاً تاماً عن الأصول والمبادىء التي يقوم عليها الإيمان.

فالمعرفة البشرية محدودة بإمكانيات الإنسان الطبيعية وبقوانين المادة، لذلك تقف عاجزة تماماً إزاء ما فوق الطبيعة والأمور غير المنظورة واحتمالات المستقبل البعيد.

أما قوة الإيمان فهي لا تعتمد على الطبيعة البشرية ولا على قوانين المادة ولا على التقديرات النسبية التي يلجأ إليها العقل. إذ أن قوة الإيمان تبدأ تتجلى وتعمل عندما يعجز العقل وتعجز الإرادة وتعجز كل القدرات البشرية ويقف الإنسان خائراً يائساً باكياً.

فقوة الإيمان وهبها الله للإنسان بسبب عدم كفايته لمواجهة القوات الفائقة على إمكانياته، وأيضاً لكي يدبر بها حياته الروحية المؤسسة على غير المنظور والمتعلقة بالحياة الأبدية البعيدة عن دائرة الحواس والإدراكات الطبيعية.

لذلك، فالاعتماد على المعرفة البشرية في تدبير الحياة الروحية لا يوصلنا إطلاقاً إلى الثقة بما يُرجى والإيقان بأمور لا تُرى، ولا يُدخلنا أبداً في دائرة ما فوق الحواس وما فوق العقل، ولا يؤهلنا لحياة روحية حقيقية لأن المعرفة البشرية لا علاقة لها بهذه الأمور على وجه الإطلاق.

الإيمان وحده هو القوة الموهوبة للإنسان ليعرف بها هذه الأمور ويحياها. لذلك أصبح شرطاً أساسياً لنوال سر الإيمان هو أن يكفَّ الإنسان عن الاعتماد على معرفته الشخصية حتى يستطيع أن يدبر حياته الروحية ويحيا لله.

ثانياً: عدم استخدام الحيلة أو الالتجاء إلى الحكمة القائمة على المكر والغش والخداع، أو الاستغراق في الحذر والاحتياط والسرية والكلام في الأذن وغَمْز العين.

الإيمان قوة جبارة أُعطيت للإنسان ليسود بها على الموت وبالتالي على كل العوامل المؤدية إلى الموت، سواء كانت أمراضاً أو مخاطرات أو تهديدات أو وحوشاً أو أشراراً أو قوات الظلمة غير المنظورة: «يحملون حيات وإن شربوا شيئاً مميتاً لا يضرُّهم» (مر ١٦:١٨). «تطأ الحيات وتسحق الأسد»، «لا تخشى من خوف الليل ولا من سهم يطير في النهار ولا من سقطة ولا من شيطان في الظهيرة... يوصي ملائكته بك وعلى أيديهم يحملونك» (مز ٩١).

إذن، فالإيمان أُعطِيَ لنا لنواجه به أصعب الظروف ونخوض به كل الأهوال والمخاطر والصعوبات وقوات الظلمة التي سماها بولس الرسول «جنود الشر غير المنظورة المنبثة في الهواء»، فكيف ينفع الحذر، وبماذا يصلح الاحتياط، وما قيمة الحيلة أو ما هي فائدة المكر؟ إنها طرق الشيطان نفسه ووسائله؛ فنحن إذا استخدمناها في حربنا الخفية معه وقعنا في فخاخه بدون حرب لأن الذي يستخدم وسائل الشيطان يكون قد سلَّم نفسه له بدون مقاومة.

الإيمان يأمر بالشجاعة والعلانية والصراحة والوضوح والمواجهة لأنه لا يخشى شيئاً ولا يهاب أحداً ولا يحسب حساب خسارة ولا مذمَّة ولا تهديد ولا عداوة ولا موت، لأن الذي يؤمن بالله يعتمد عليه بالضرورة.

ثالثاً: عدم استخدام حكمة التريُّث بقصد انتظار الخير من وراء الأيام، أو بقصد المماطلة والهروب وراء عامل الزمن والخوف من الواقع.

«ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة» (يو ١٣:٢٧)!

هكذا كان كلام المسيح ليهوذا الخائن لما شعر الرب أن التلميذ قد بيَّت على الخيانة والتسليم وقبض الثمن!

الإيمان لا يعتمد على الزمن ولا ينتظر مكسباً من وراء طول الوقت أو قصره. فالإنسان الذي جعل الإيمان قوته التي يعتمد عليها فقط، لا يعود ينتظر مجيء الأيام أو ذهابها لانتهاز الفرص أو التهرب من خطر واقع.

الإيمان قوة تنبع لنا من قلب المسيح لتمدَّنا بالحياة الأبدية، فهو مقياس الروح للخلاص.

أما الزمن فهو قلب هذا الدهر الذي تمثله الساعة الحديدية الباردة.

الخلاص والتدبير الروحي والحياة الأبدية ومسرَّات الروح لا تنمو ولا تزيد بالتمسك بطول الأيام واشتهاء طول العمر، وإنما تنمو وتزيد بالتفكير في النهاية ووضع حُكْم الموت على النفس في كل لحظة: «كان لنا في أنفسنا حكم الموت لكي لا نكون مُتَّكلين على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات» (٢كو ١:٩).

فالذي يعتمد على الزمان حتماً يخاف من الموت ويشتهي إطالة الأيام واستطالة العمر، أما الذي يعتمد على الإيمان فهو لا يخشى الأيام ولا يشتهيها ولا ينتظر مجيئها أو ذهابها، والموت عنده حاضر دائماً، لأنه ينتظر الحياة الأبدية ويؤمن بالقيامة من الأموات التي هي خارج عن الزمان.

فالتدبير الروحي وتكميل مشيئة الله وتنفيذ الوصايا وتكريس الحياة يتعلق بهذه اللحظة التي تعيشها، لا يحتمل التسويف لأن أمس الذي عبر أصبح ليس

لك فيه دقيقة واحدة، وباكر الذي تنتظره لا تملك فيه ثانية واحدة، أما «الآن» فهو مِلْكُك كله تستطيع أن تقول فيه وتعمل فيه كل مشيئة الله!

رابعاً: عدم الدفاع عن النفس لا بالقول ولا بالعمل، لا بالقوة ولا بالسلطان.

الذي يؤمن بالعناية الإلهية ومحبة يسوع المسيح وأُبوَّة الله، كيف يدافع عن نفسه؟

الإيمان بالله معناه الاعتماد عليه!

الذي لا يعتمد على الله وحده كيف يقول إنه يؤمن به؟

فإما تهتم أنت بنفسك وتدافع عن حقوقك، وحينئذ تفقد كل حقك في دفاع الله عنك، وإما تترك كل مسئولية حياتك على الله وتسلّمه كل حقوقك، وهذا هو الإيمان.

«الذي إذ شُتم لم يكن يشتم عوضاً، وإذ تألم لم يكن يهدد بل كان يُسلّم لمن يقضي بالعدل» (١بط ٢:٢٣).

فكل من يريد أن يعيش بالإيمان ويتذوق قوته، عليه أن يضع في دستور حياته أن لا يدافع عن نفسه قط لا بالقول ولا بالعمل، ويجعل وصية الله أمام عينيه: «الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر ١٤:١٤).

حينما تدافع عن نفسك وتسترد كل حقوقك المسلوبة وتستخدم في ذلك ما تستخدم من سياسة وقوة وسلطان وتخويف وتهديد، تجد نفسك في آخر المطاف قد كسبت حفنة تراب وخسرت جميع وصايا المسيح دون أن تشعر!

أما حينما تسلّم قضيتك لله ليحكم هو فيها بمقتضى مشيئته، متنازلاً عن كل حقوقك، مُفرِّطاً في كل ما لك، راضياً بحكمه مهما كان؛ فالنتيجة المؤكدة أنك ستكسب الإنجيل، وكفاك.

الشروط الإيجابية لنوال سر الإيمان

وهي البساطة القلبية، واتضاع العقل، وطاعة المشيئة. ولكننا سنجمعها تحت عنوان واحد هو: **تسليم النفس لله.**

لكي ندرك سر قوة الإيمان وفاعليته يلزمنا أن نعرف كيف يستسلم الإنسان لله من كل قلبه وفكره وإرادته كما يستسلم الطفل لأبيه ببساطة قلب واتضاع حقيقي وطاعة مستعدة لتنفيذ كل أمر.

والواقع أن الطفل لا يستسلم لأبيه إلا من واقع إحساسه بأن أباه قادر أن يحفظ نفسه ويدبرها أفضل منه، **فالإيمان يعتمد اعتماداً شديداً على معرفة قدرة الله الفائقة!**

ولكن نوال سر الإيمان يعتمد على قدرة التسليم الفعلي لهذه القدرة!

إذن، هناك فرق بين أن نؤمن بالله وبين أن نُسلّمه أنفسنا. هذا الفرق ناتج من أن الإيمان بقدرة الله لا يكفي لكي نُسلّمه أنفسنا، إذ يلزم فوق الإيمان بقدرة الله أن نثق في هذه القدرة.

فالطفل قد يعلم تماماً أن أباه قادر على كل شيء، إلا أنه لا يثق فيه أو يذهب نحو ويُسلّم نفسه إلا إذا شعر بمحبته!

فالإيمان بالله شيء ومحبة الله شيء آخر، ولكن إذا اجتمعا معاً ظهر منهما قوة جديدة هي الثقة بالله ثقة عظمى، التي تُعتبر قوة الإيمان وسر فاعليته.

وباختصار شديد نقول: إنه يلزمنا أن نثق في محبة الله، كما يلزمنا أن نؤمن بقدرته حتى نستسلم له كلياً فنباشر أعمال الإيمان ونذوق سره العجيب!

الإيمان البسيط سر قوة التدبير الروحي

طرق الروحانيين على وجه العموم وحَزْمهم في تتميمهم لوصايا الإنجيل تبدو صعبة وغير معقولة أحياناً. لأننا حينما ننظر إليها، ننظر إليها بمنطق العقل والحكمة والاختبار المادي والعلمي القائم على القوانين الطبيعية.

في حين لو نظرنا إليها في واقعها الروحي بالإيمان، نجد أنها كانت سهلة وبسيطة وناجحة لهم لأنهم عاشوها وعملوها بقوة الإيمان، **قوة الإيمان الذي يذلل القوى الطبيعية وقوانينها ويُخضعها لكي تشهد لصدق الإنجيل.** لأن الإيمان أُعطي للإنسان ليتسلط به على قوى العالم الساقط ويحررها من محدوديتها والتزامها بحتمية القانون المادي لتخدم الخلاص وتبرهن على لانهائية الله والحق الفائق لحدود المعرفة البشرية!

أننسى كيف سار بطرس على الماء؟ وكيف خطف الروح فيلبس وعبر به في الهواء من غزة إلى أشدود؟ وكيف فتح الملاك مصاريع أبواب السجن المغلقة وأخرج بطرس ليلاً؟ وقديماً كيف سار إيليا أربعين يوماً بأكلة واحدة، وكيف سار شعب إسرائيل أربعين سنة في برية مقفرة ولم تبلى ثيابهم أو تنقطع سيور أحذيتهم، أو يجوعوا أو يعطشوا؟

واضح إذن أن **الله أَدخَل قوة الإيمان إلى عالم الإنسان لكي يتحرر بها الإنسان نفسه من ثقله المادي وخضوعه لالتزامات الجسد وأعوازه ومخاوفه وأوهامه**، والإنجيل كله عبارة عن وصايا تحض الإنسان على أن يتحرر من هموم ومخاوف التزامات الجسد.

فالله يوصي أن لا نهتم بالجسد، ولا بالطعام والشراب، ولا بالملابس، ولا نلجأ للتخزين ولا نلجأ إلى كَنْز الأموال، ولا نجزع من الذي يغتصب ما

نرتديه بل نكون على استعداد لخلع بقية الثياب. فالله يريد قبل كل شيء أن يحررنا من مذلة الحاجة وهمِّها وإضاعة العمر في تخزين الأشياء، **لأن بالإيمان نستطيع أن ننالها من الله عندما نحتاجها** أكثر مما نوفرها نحن.

كذلك يأمرنا الإنجيل أن نستهين بالجسد ولا نخاف من العدو، بل نكون مستعدين أيضاً أن لا نخاف حتى لقتل الجسد! كل ذلك لأن قوة الإيمان الذي تسلّمناه من المسيح يستطيع أن يجعلنا فوق جميع هذه الاعتبارات.

فبالإيمان نسود علي كلِ شيء حتى على الخوف وعلى الموت نفسه!! وليكن معلوماً جيداً أنه في اللحظة التي تبلغ فيها قوة الإيمان عندنا درجة التسليم لقتل الجسد بدون خوف تنفيذاً للوصية، فسنستلم حينئذ من المسيح روح القيامة! وهذه الحقيقة يشهد بها كل الذين سلموا أجسادهم لعذاب الموت في أيدي مضطهديهم، **كيف نالوا في لحظة الموت روح القيامة**، بل ومنهم من قام فعلاً بالجسد وعاش. لأنه إذا حلت روح القيامة في إنسان، فإنه يسود على الموت إلى الأبد.

ونحن لو تأملنا في أنفسنا قليلاً، لوجدنا أن كل عمل نقوم به من أنفسنا إنما يعتمد على قوتنا وتفكيرنا المنبعث من طاقتنا الحيوية التي تعتمد بالتالي على الطعام والشراب والشمس والهواء. أما عمل الله وتدبيره فلا يقوم على هذه الأشياء إطلاقاً، بل هو حرٌّ من المادة وحرٌّ من الخليقة كلها، لأن الله يستطيع أن يخلق من العدم. فتدبير الله أعلى من فكر الإنسان.

لذلك، **فقوة الإيمان بالله تتشدد جداً حينما نضع في قلبنا أن أعمال الله معنا تفوق جميع تقديراتنا، حتى أنه يستطيع أن يخلق من العدم خليقة جديدة.**

«إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم» (مت ٣:٩).

فكم بالحري يعطينا ما نحتاجه عند الضرورة ويهبنا قوة ومعونة لتكميل

وصاياه، إن كان في الصوم أو السهر أو الصلاة أو الفقر الاختياري أو بذل المحبة أو الخدمة من أي نوع التي هي وصاياه؟ فهل نخاف من تتميم وصاياه لئلا نمرض أو نضعف؟ هو قال للقديس بولس الرسول: «قوتي في الضعف تُكمَل» (٢كو ١٢:٩)، والقديس بولس يشهد بذلك: «لأني حينما أنا ضعيف فحينئذ أنا قوي» (٢كو ١٢:١٠).

أو هل نخاف من تطبيق وصاياه لئلا نجوع ونعطش ونُعرَّى ونعتاز نحن أو أولادنا؟ هو يقول إن كان الله يُقيت طيور السماء وهي لا تزرع ولا تحصد فكم بالحري أنتم يا قليلي الإيمان؟

هل نخاف من الاعتراف به لئلا نُضطهَد؟ هو قال: «طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين» (مت ٥:١١).

هل نخاف حينما نعتمد عليه فقط دون أية قوة أو حيلة أو سلاح لئلا نموت؟ هو قال: «لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها» (مت ١٠:٢٨).

إذن، فالذي ينبغي أن يرسخ في ذهننا أن الذي وضع لنا الوصايا، وضعها لربحنا أولاً وأخيراً. وهو ضامن نجاح كل من يتممها بغرض مستقيم، وأن الخسارة التي تبدو في الوصية مخيفة للذات والجسد هي في الواقع محكُّ الإيمان وفيها تكمن الشهادة ومن أجلها يُعطى الجزاء!

صحة التدبير مقياس لصحة الإيمان

قوة الإيمان وحرارته وصحته لا يمكن الحكم عليها من منطوق الإنسان ولا من أفكاره أو كتاباته، ولكن من أعماله وسلوكه: «وأنا أريك **بأعمالي إيماني**» (يع ٢:١٨).

فالإيمان النظري الصحيح حسب أصول الإيمان السليم كما استَلَمته الكنيسة هو بمثابة الأساس العام لكل من يريد أن يبني عليه بيت إيمانه. ولكن إذا لم يبنِ الإنسان عليه شيئاً فكيف يدَّعي أنه إيمانه؟ كما يقول يعقوب الرسول إنَ الذي يكتفي بالحقيقة المشاعة أن «الله موجود» فلا فضل له في ذلك، لأن الشياطين تؤمن بذلك أيضاً بل وتعترف وتقشعر من وجوده. أي **يلزم أن يبرهن الإنسان عن إيمانه بوجود الله بصلاته وسلوكه مع الناس بمقتضى أوامر الله ووصاياه، وأن يكون تصرفه في الشدائد والمحن يعلن بوضوح ثقته الشخصية في الله واعتماده العملي عليه.**

أي أن التدبير الروحي في الداخل والخارج هو مجال الإيمان بالله الذي فيه تظهر حرارة الإيمان الصادق وصحته؛ فكيف تحب الله إلا بتتميم وصاياه؟ وكيف تنمو في حبه إلا بازدياد الإخلاص والتدقيق في تنفيذ أصغر وصاياه؟ «إن أحبني أحد يحفظ كلامي» (يو ١٤:٢٣)، «أنتم أحبائي إن فعلتم ما أُوصيكم به» (يو ١٥:١٤). «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني» (يو ١٤:٢١). «إن أحبني أحد يحفظ كلامي» (يو ١٤:٢٣). «الذي لا يحبُّني لا يحفظ كلامي» (يو ١٤:٢٤).

والسؤال الذي يسأل عنه الجميع كيف ينمو ويتشدد، هو نفس السؤال كيف ينمو حبي بالمسيح ويتشدد؟ أما الجواب على ذلك فتجده مردوداً عليه بالآيات السابقة أي في كيف تنوي أن **تحفظ كلام المسيح** وبأي نشاط وحب وحماس ستستمر في **تتميم وصاياه** بتدقيق وأمانة وإخلاص؟

في بدء تدبير السيرة الروحانية يظهر بوضوح كيف يتعارض الإيمان مع راحة الإنسان، وكيف تقف وصايا الإنجيل ضد الكرامة الإنسانية، وكيف تبدو أقوال المسيح مُرَّة في حلق الذات التي تريد أن تتمجد بالناس وتحوِّل كل فرص الروح للشهرة الشخصية.

مقياس الإيمان تظهر دقته وصلاحيته بل وأرثوذكسيته في استعداد الإنسان لرفض الحياة الأرضية كلها والتنازل عنها بكل راحتها ومجدها الكاذب، إذا تعارضت مع أصغر وصية للمسيح.

ودائماً أبداً وعلى طول حياتك، سيضغط عليك الشيطان بكل حيلة لكي تتساهل في التمسك بالحق حتى تحتفظ بموقفك الدنيوي أو الاجتماعي. ويُخيفك ويُربكك حتى تتنازل عن وصية المسيح لكي تكسب فرصة الظهور والسلطان والمجد الشكلي. **وهكذا سيكون الإنجيل وبالتالي المسيح ضحية في طريق انتفاعك وانتهازك لفرص المكسب والراحة والمجد الزائل.**

ولكن في كل مرة تُعرَض عليك فرصة الخيانة للأمانة والحق، سينظر إليك المسيح نظرة تخترق ضميرك وأحشاءك، كنظرته لبطرس ساعة الخيانة، عساك ترجع عن عزمك.

هنا مقياس الإيمان الحر، **وطوبى للذي يختار الخسارة والتعب والمَحقَرة والمرض بل والموت على أن لا يتنازل عن أمانته لله. لأنه إذا تجاسر على ذلك، فسوف ينال قوة تعوِّضه عن كل خسارة. قوة ما كان يعرفها وما كان ينتظرها.** هذه القوة التي نسميها «**النعمة**» وتفسيرها «**قوة الله المجانية**» التي هي مرتبطة بالإيمان أشد ارتباط: «**لأنكم بالنعمة مُخلَّصون بالإيمان**» (أف ٢:٨). وليس أي إيمان وإنما إيمان المجترىء المتجاسر على الموت!! **هذه القوة تسهِّل لك الصعاب وتسمو بحواسك وجسدك فوق عَوَز الطبيعة، فيصلي الإنسان دون أن يتعب، ويصوم دون أن يهزل، ويخدم دون أن يخور، ويحب دون أن يتوقف، مع حرارة في النسك والتدبير الروحي لا تبرد أبداً.**

هذه النعمة هي سر التدبير الروحي عند كافة الروحيين، التي منها يستمدون قوتهم ونشاطهم وغَلَبتهم على كل إغراء أو تهديد يعرضه العالم عليهم.

لا يمكن الاحتفاظ بقوة الإيمان الصحيح الحر إذا حاول الإنسان أن يسلك بحكمته لكي يُرضي الطرفين، العالم والله. فعليك أن تختار: إما الله ومعه قوة الإيمان الغالب للصعاب، وإما العالم ومعه حكمة الحِيَل لمراضاة الناس وسياسة المداراة واللف للتوفيق وراحة البال.

واعلم أن الإيمان بالله مع العجز والضعف والإهانة وضياع الحقوق، أقوى من الانتصار القائم على الحيلة والسياسة. فالمسيح وهو حامل صليبه خاسراً قضيته مُهاناً مطروداً خارج أورشليم، كان أقوى جداً من حنان وقيافا وهيرودس وبيلاطس مجتمعين.

فلا تجعل قلبك على الربح أو الانتصار المنظور، بل **تمسك بالخسارة إذا كانت توصلك إلى راحة الضمير وإرضاء الإنجيل.**

مقياس الإيمان الحر لا يتأثر بالعوارض، فلا الخوف من الخسارة يجعلك تتنازل عن تصميمك في الخدمة، ولا الخوف من المستقبل يجعلك تجحد وصية الاعتماد على المسيح في تدبير حاجات الجسد، ولا الخوف من المحقرة والإهانة والفضيحة يجعلك تدافع عن نفسك وتتهم وتهدد وتقاوم، ولا الخوف من الموت يجعلك تجحد أمانتك وتُمسِك عن شهادتك للمسيح.

فمقياس الإيمان الحر الصحيح في التدبير الروحي يجعل الإنسان يسير وراء المسيح متمسكاً به داعياً باسمه في أشد الظروف حَرَجاً وأخطرها تهديداً دون أن ينظر إلى الوراء قط، لا يحسب للخسارة حساباً ولا نفسه تكون محسوبة عنده، بل يكون قد سبق ووضع حكم الموت في نفسه: «لكن كان لنا في أنفسنا حكم الموت لكي لا نكون متكلين على أنفسنا بل على الله الذي يقيم الأموات» (٢كو ١: ٩). فإن كان مقياس الإيمان الصحيح يتعارض مع الخوف في كل نواحيه فلأنه يتعارض مع اهتمامك بنفسك.

الإنسان عندما يكون إيمانه صحيحاً حياً لا يميل ولا يشتهي معاضدة أو معونة بشرية في وقت الضيق أو الخطر. لأن اعتماده على الإيمان بالله يكفيه جداً، وقلبه يكون مترجياً الله وملتصقاً به وحده؛ لذلك لا يلوم الناس إن هم تركوه وحده، ولا يدين الإخوة أو الأصدقاء لأنهم كفّوا عن معونته؛ بل يجد معونة الناس له في هذه الأوقات مُعوِّقة وخطرة على إيمانه بالله. لذلك فهو إذا لم يستطع أن يمنعها فهو لا يطلبها.

«اذبح لله حمداً وأوفِ العليَّ نذورك وادعُني في يوم الضيق أُنقذك فتمجدني» (مز ٥٠: ١٤ و١٥).



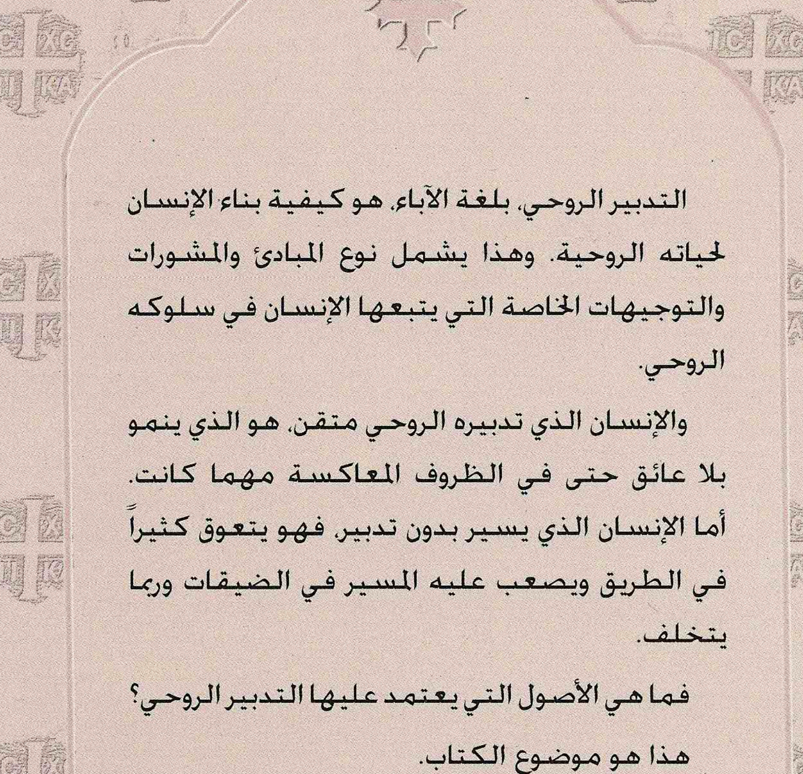
سلسلة

مقالات تصلح للخدام والشباب

يُطلب من:

دار مجلة مرقس

القاهرة: ٢٨ شارع شبرا – تليفون: ٢٥٧٧٠٦١٤
الإسكندرية: ٨ شارع جرين – محرم بك، تليفون: ٤٩٥٢٧٤٠
أو من مكتبة الدير
أو من خلال موقع الدير على الإنترنت:
www.stmacariusmonastery.org



التدبير الروحي، بلغة الآباء، هو كيفية بناء الإنسان لحياته الروحية. وهذا يشمل نوع المبادئ والمشورات والتوجيهات الخاصة التي يتبعها الإنسان في سلوكه الروحي.

والإنسان الذي تدبيره الروحي متقن، هو الذي ينمو بلا عائق حتى في الظروف المعاكسة مهما كانت. أما الإنسان الذي يسير بدون تدبير، فهو يتعوق كثيراً في الطريق ويصعب عليه المسير في الضيقات وربما يتخلف.

فما هي الأصول التي يعتمد عليها التدبير الروحي؟

هذا هو موضوع الكتاب.